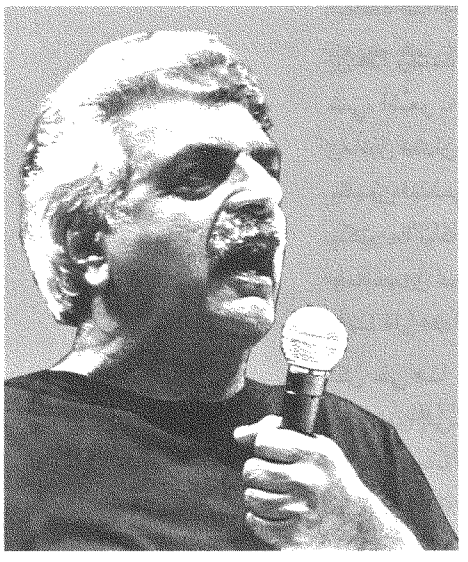

حوار مع المثقف الباكستاني التقدمي: طارق علي

أجراه: دايفيد برسميان
ترجمة: سماح إدريس

ضـــــلالاتُ إمـــــبـــــريـاليـــــة

خصَّ الصديق والباحث التقدُّمي دايڤيد برسميان مجلةَ الآداب بآخر حوارٍ أجراه مع المثقف والناشط طارق علي في شتاء هذا العام، تَنْشر جزءاً منه فقط (نصفَه تقريباً) مجلةُ ISR. فلهُ الشكر والتقدير.

ولد طارق علي عام ١٩٤٣ في لاهور، التي كانت آنذاك جزءاً من الهند الواقعة تحت الحكم البريطاني ولكنَّها تقع اليومَ في باكستان. وهو يعيش منذ أعوام كثيرة في لندن ويرأس تحرير نيو لفت ريڤيو (مجلة اليسار الجديد). له أكثر من عشرة كتب في السياسة وتاريخ العالم، ومنها: صِدام الأصوليات، و بوش في بابل. وتَشْمل آخرُ إصداراته نسخةً جديدةً عن مذكّراته بعنوان: سنوات حرب الشوارع.

وأمّا دايفيد برسميان، الذي سبق أن قدَّمناه في حوارٍ أجراه مع الكاتب العظيم الراحل إقبال أحمد عامَ ٢٠٠١، فنعيد التذكيرَ بأنَّه مؤسِّس ومدير «الراديو البديل» Alternative Radio في بولدِرْ (كولورادو) وصاحبُ عدة كتب من الحوارات مع تشومسكي وإدوارد سعيد (يصدر عن دار الآداب هذا الشهر بعنوان: الثقافة والمقاومة) وهاورد زِنْ وارونداتي رويْ. وتَفْخر دار الآداب بأن تُصْدر قريباً جداً، وبترجمة رئيس تحرير الآداب، كتاباً من الحوارات أجراها برسميان طوال سنوات مع المثقف التقدمي طارق علي بعنوان: الحديث عن الإمبراطورية والمقاومة.

غور ڤيدال، الباحث والكاتب المشهور، يسمّي الولايات المتحدة الأميركية: الولايات المتحدة الفاقدة الذاكرة (United States of Amnesia).

إنّ هذا وصفٌ رائع. غور ڤيدال لديه القدرةُ المذهلةُ على اختزال الأمور في جملة واحدة. وما يقوله شيء أَشْعر به منذ وقت طويل، منذ أنْ دأبتُ على القدوم إلى الولايات المتحدة. أعتقد أنّ الأميركيين يعانون فقدانَ ذاكرة من الناحيتين الثقافية والتاريخية، وإحساسًا بالإنكار يُتاخم المخادَعةَ. إنّهم ينسوْن الماضي. ولا يريدون أن يصدِّقوا أنّ ما يجري اليومَ باسمهم شرٌّ وإجرام، ولهذا يجمّلونه بأكثر ما يُمْكن من التركيبات. ذلك أنّهم لو اعترفوا بالحقيقة كما هي فستكون العواقبُ باهظةً، وسيجدون عسيرًا القبولَ بالمؤسسة السياسية في هذه البلاد، وسيكونُ عليهم أن يفعلوا شيئًا. ولهذا فإنّ فقدانَ الذاكرة ملائمٌ لهم تمامًا.

لكنّ على هذا الاحساس أن يُنْتزعَ من الأميركيين. أحيانًا أَشْعر أنّ أغلبية المواطنين الأميركيين يحتاجون إلى علاج جماعيّ؛ يحتاجون إلى صرخةٍ كبرى على ما يجري وما يُرتكبُ باسمهم. وهذا يَحْدث أحيانًا في التاريخ الأميركي: فقد حَدَثَ في عزّ الحرب على ڤيتنام، وإذا تواصلت الخسائرُ في العراق فقد نبدأ بسماعِ صرخاتٍ صغيرةٍ من جديد.

كيف يتحمَّل المواطنون الغربيون أن يعامَلوا وكأنَّهم مساطيل من قِبل إعلامهم وحكوماتهم؟

هناك كاتب أميركي آخر، بل هو أعظمُ مؤرّخينا الشفويّين، واسمه ستادز تِرْكِلْ، يقول إنّ الولايات المتحدة مصابة بمرض الزهايْمر. إلى أيّ مدًى تُسْهم وسائلُ إعلام الشركات بفقدانِ الذاكرةِ ذاك؟

إنّ الإعلام قد أصبح الكابوسَ الذي تنبّأ به جورج أورويل في كتابه: ١٩٨٤. إنّ رؤيته في هذا الكتاب من زاوية فهم الإعلام المعاصر ماثلةٌ تقريبًا في التغطية اليومية التي نراها لحرب العراق على قناة BBC و CNN والمحطات الأميركية الأخرى. ولن أذْكر، وإنْ مجرّدَ ذكرٍ، محطّةَ فوكس، لأنّها شيء لم يكن أورويل نفسُه ليتنبّأ به!

من المهمّ أن نتذكّر أنّ أورويل، حين كتب ١٩٨٤، كان يَعْمل في غرفة صغيرة في هيئة الإذاعة البريطانية (BBC). وكان يتخيّل ما يُمْكن أن يَحْدث إنْ خرجت الأمورُ عن زمامها. وقد خرجتْ بالفعل الآن. فقد أصبح الإعلام دعامةً مركزيةً للمجمّع العسكري ـ الصناعي في الولايات المتحدة، وللاتّجار بالحروب، وللإمبراطورية. وهناك أمثلة كثيرة جدّاً على الأكاذيب والإغفالات الصّريحة في الإعلام. ذلك أنّ ما لا يَذْكره هذا الإعلامُ هو في الغالب أهمُّ بكثير ممّا يَذْكر. إنّ إدارةَ الأخبار في العالم الغربي اليوم قد أصبحتْ فنّاً. وحين ترى ما يجري اليوم تتذكّر غالبًا أسوأَ أيام الاتحاد السوڤياتي، قبل البيريسترويكا. لقد كان الناسُ في الغرب آنذاك يَضْحكون ويقولون: «يا ربّي، كيف يستطيع الروسُ تحمُّلَ ذلك؟». والسؤال الذي يمكن أن نسأله **الآن** هو: «كيف يستطيع المواطنون **الغربيون** أن يتحمّلوا أن يُكذَبَ عليهم إلى ما لا نهاية، وأن يعامَلوا وكأنّهم مساطيل من قِبل إعلامهم وحكوماتهم؟»

«غرفة التحكّم» فيلمٌ وثائقيٌّ لافتٌ لمنتجة الأفلام المصرية ـ الأميركية جيهان نجيم. في اللقطة الافتتاحية يقول سمير خضر، وهو منتجٌ رئيسي في قناة الجزيرة، إنّه «لا يمكن أن تخوض حربًا من دون پروپاغندا.»

إنّه مصيب تمامًا. أعتقد أنّ هذا الفيلم الوثائقي مثير جدّاً، وأعتقد أنّ عدم إجازة عرضه على التلفزيون اليوم أمرٌ كاشفٌ في حدّ ذاته. فقبل ٢٥ عامًا كان يُمْكن عرضُ هذا الفيلم في بريطانيا على قناة BBC أو القناة الرابعة، وفي الولايات المتحدة على قناة PBS. أما اليوم فلا يمكن ذلك، وهذا يفسِّر لماذا أصبحتْ السينما الوثائقية مجالاً جديدًا هامّاً لنا، حتى لو وَضَعْنا مايكل مُور جانبًا. فهذا الأخير مشهورٌ ويستطيع أن يَفْعل ما يشاء، إلاّ أنّ منتجي الأفلام الوثائقية الشباب مثلَ

منتجي «غرفة التحكّم» قدّموا لنا خدمةً حقيقيةً. فهؤلاء هم المدافعون عن الديموقراطية؛ إنّهم الناس الذين يُعطون المواطنين رؤيةً بديلةً وطريقةً بديلةً في النظر إلى الأشياء. وهذا هو ما يولّد التنوّعَ الحقيقي، وليس ما يولّده الهراءُ والأكاذيب التي تراها في الإعلامِ المبثوث السائدِ الذي تُعادُ طباعتُه عادةً دونما نقدٍ.

إنّ أكثر ما صَدَمني في «غرفة التحكّم» ليس كيفيةَ تغطية قناة الجزيرة للحرب بل كيفية اندماج الصحفيين الغربيين في آلة الحرب. فالفيلم مثلاً يصوِّر المؤتمرَ الصحفي الكبير في بغداد، حين يأتي الناطق العسكري الأميركي ويُخْبِر «حُماةَ الديموقراطية،» أي الصحفيين في الإعلام الغربي، أنّ بغداد سقطتْ، فيقف الحضورُ، وتَصْدح الهتافاتُ وصيحاتُ الانبهاج ـ وكلُّها من أكثر الأمور المقرفة التي شهدتُها في الإعلام الغربي في الأعوام الأخيرة. إنّ هذا أسوأ، أسوأ بكثير جدّاً، ممّا كان عليه الأمرُ في السابق.

وهذا ليس عَرَضًا، بل أمرٌ متعمَّد. فالإعلامُ اليومَ لا يستطيع أن يقول الحقيقة. ذلك أنّ أغلبية وسائل الإعلام تَمْلكها شركاتٌ عملاقة، ولذا تخاف تلك الوسائلُ إنْ هي قالت الحقيقةَ أن تنقطع عنها مصادرُ التمويل. في حالة الـ BBC (هيئة الإذاعة البريطانية) هناك مدراءُ جبناءُ ضعفاءُ الشخصية في الأساس. وأمّا مَنْ تبقّى لديه شيءٌ من الشجاعة فقد صَرَفَتْه حكومة بلير العمّالية الجديدة من الخدمة، وتولّى زمامَ الأمور أشخاصٌ مأجورون من غير أيّ فهم خلاّق على الإطلاق؛ أشخاصٌ كانوا سيَشْعرون بالراحة التامّة في ألمانيا الشرقية زمنَ حكم اريك هونيكر!

الشركة الأميركية التي تَمْلك **الدايلي ميرور** البريطانية صرفتْ رئيس التحرير بعدما نشر صورَ بريطانيين يعذّبون أسرى عراقيين.

في أميركا ثمة شعورٌ بأنّ الإعلام المكتوب في بريطانيا أفضلُ إلى حدٍّ ما. فمثلاً عندكم في بريطانيا ذلك الشيءُ الشاذّ اللافتُ الذي هو جريدة الدايلي ميرور، **التي توزِّع كما أظنّ حوالي ٤ ملايين نسخة، وتُبْرز مقالاتٍ لجون بيلجرْ وبيتر آرنَتْ. وهناك أيضًا جريدتا** الإندبندنت **و**الغارديان.

الإعلام المكتوب في بريطانيا أفضل بكثير جدّاً من نشرات الأخبار التلفزيونية في ما يخصّ الحرب على العراق. وهذا يَعْكس عدة أمور، أوّلُها أنّ الاستابلشمنت البريطانية كانت منقسمةً حول الحرب. وأَقْصد بالاستابلشمنت: القوات المسلّحة، والمخابرات، بقَدْر ما أَقْصد الموظفين المدنيين الذين يُديرون بريطانيا من وراء الستارة في وزارة الخارجية ووزارة الدفاع وغيرهما. هذا الانقسام أعطى وسائلَ الإعلام المكتوب فرصةً لقول الحقيقة؛ فقد عَرفتْ بوجود تلك الانقسامات، وهذا يعني أنّها لن تُجابَهَ بنخبةٍ حاكمةٍ موحَّدةٍ تمامًا، كما يحدث غالبًا حين تخوض بريطانيا الحربَ. وكانت تلك الوسائل تَعْلم أنّ هناك عددًا من الضبّاط غير سعداء بقرار بلير بالحرب. وهذا أَكْسبَ جرائدَ مثلَ **الدايلي ميرور** الشجاعةَ، رغم أنّ ردَّ الحكومة بدأ بطرد رؤساء الـ BBC وبتوريط رئيس تحرير تلك الجريدة في مؤامرة: فلقد أُعطي صورًا لجنود بريطانيين يمارسون التعذيبَ في العراق، فنَشَرَها بكلّ حسن نيّة، فأَصدرت الحكومةُ فورًا بيانًا تقول فيه إنّ الصور مزوّرة، وهكذا صُرف من الخدمة على يد «الثالوث المقدّس،» أي الشركة الأميركية التي تَمْلك **الدايلي ميرور**. إذن رئيسُ التحرير الذي اتّخذ القرارَ بالمجازفة، وأبْرز مقالاتِ جون بيلجر على الصفحة الأولى، وجَعَلَ **الدايلي ميرور** معاديةً للحرب طوال الفترة السابقة لها وعلى امتداد المراحل الأولى التي تلت الاحتلالَ، هذا الرئيسُ لم يعد رئيسًا.

أما بصدد **الغارديان** و**الإندبندنت**، فلا شكّ أنّ الصفحة المخصّصة للتعليقات فيهما حافظتْ على نقدٍ ثابتٍ للمغامرة الإمبريالية في العراق. لكنّ تغطية **الغارديان** للحرب في حدّ ذاتها ليست بالقوة التي نجدها في **الإندبندنت**؛ فهذه الأخيرة توظّف روبرت فيسك وباتريك كوكبرن، وهما صحفيّان شجاعان كتبا تقاريرَهما من ميدان الحرب في العراق ورَفَضا أن يُستوعبَا بأيّ شكلٍ أو صورة.

فلنقلْ إذنْ إنّ أمامنا شكليْن من الصحافة: الأول هو الصحافة المندمجة بالمؤسسة الحاكمة embedded journalism، ونعني بذلك أنّ الأشخاص الذين قرّروا سلوكَ هذا الطريق يحرصون فقط

على مهنتهم الشخصية ولا تهمّهم الحقيقةُ بشكل خاصّ. والثاني هو المدرسة القديمة من الصحفيين، الذين مازالوا يؤْمنون بالمفهوم العتيق القائل بأنّ مهمةَ الصحفي هي البحثُ عن الحقيقة، والعثورُ عليها، والإخبارُ بها ـ وهؤلاء اليومَ قلّةٌ.

لقد أجريْنا ذاتَ يوم حوارًا بعنوان «الإمبريالية: سابقًا وراهنًا.» لعلّنا نستطيع أن نجري حوارًا بعنوان «الخطاب: سابقًا وراهنًا.» دعني أقرأْ لك شيئًا قاله الفريقُ البريطاني ستانلي مود بعد احتلال العراق عامَ ١٩١٧: «إنّ جيوشَنا لا تأتي إلى مدنكم وأراضيكم كمحتلّين أو أعداء، بل كمحرّرين.»

إنّ الخطاب لا يتغيّر أبدًا. إذ كيف يُمْكن أن تكون الإمبرياليةُ غيرَ التحرير؟! هكذا يفكّر الإمبرياليون. يحاولون دائمًا أن يَضْبطوا القناعَ على وجوههم لأنّهم يُحسّون بالذّنْب؛ فَهُمْ يَعْلمون أنّهم يحتلّون بلدانًا أخرى. ولقد كان البريطانيون أسيادًا في هذا الخطاب.

ملاحظة صغيرة: حفيد ستانلي مود، وهو من معارفي الوثيقين، كان يمشي في التظاهرة في بريطانيا ضدّ الحرب على العراق! إذن، العائلاتُ نفسُها تتغيّر. ولكنْ، بالعودة إلى الخطاب الذي يستخدمونه، فقد وجدنا مثالاً بارزًا عليه في خطاب جورج دبليو بوش الذي تحدّث فيه عن الحرب من أجل الحرية، وضدّ الاستبداد. لقد كان ذلك أيضًا هو الخطاب في زمن الحرب الباردة. وكان أيضًا خطابَ الإمبراطورية البريطانية، والإمبراطورية الفرنسية، بل وأحيانًا الخطابَ الذي استخدمه هتلر. خذْ أيضًا الخطابَ الذي استخدمه الديكتاتور الإيطالي الفاشستي في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، بنيتو موسوليني؛ فقبْلَ أن يحتلّ بلدًا ما كان يقول: «إنّنا نذهب إلى هناك لمصلحة الحضارة الأوروبية. سنُسْقط الاستبدادَ الاقطاعيَّ في ألبانيا» (التي كان يَحْكمها الملك أحمد زُوغ، وكانت فعلاً محكومةً بالاستبداد)، «وإنّنا قادمون إليكم كمحرّرين.» ثم تبيِّن أفلامُ السينما الإيطالية كيف يتمّ استقبالُ الجنود الإيطاليين من قِبل حفنةٍ من الألبانيين. قارنْ ذلك بخطاب الولايات المتحدة وأنصارِها في العراق، فلن تجد فوارقَ كبيرةً.

شعوب الغرب قلقة من الحرب على العراق، لكنّ القادة يُخْفون عنها الحقيقةَ ويعاملونها كالأطفال

لقد أعلن جورج دبليو بوش بعد الهجوم على العراق «أنّنا لسنا قوة إمبريالية... إنّنا قوةٌ تحريرية.» إنّ هذا دليلٌ عن طريق التأكيد [المُبالَغ فيه]؛ أي يكفي أن يُعْلَنَ كي يصبح دليلاً، دونما حاجة إلى أيّة مساءلة.

أمرٌ لا يصدَّق أن يستطيع أن يقولَ ذلك، لأنّه هو نفسه لا بدّ أن يَعْلم أنّ ذلك ليس صحيحًا. والأشخاص حوله بالتأكيد، مثل ديك تشيني وكوندوليسّا رايس ودونالد رامسفلد، يعرفون تمامًا ما سيُقْدمون عليه. لكنّ عليهم أن يقولوا ذلك لأنّهم يدركون أنّ أقسامًا كبيرةً من شعوب الغرب، بما في ذلك داخل الولايات المتحدة، قلقةٌ من الحرب، ولذا فإنّ عليهم أن يعاملوها كالأطفال. فأنتَ لا تقول الحقيقةَ أمام الأطفال؛ بل تتحدّث من خلف ظهرهم. أمامَهم تقول إنّ العالم رائع، وإنّ كلَّ شيء تمام التمام، وسيأتي بابا نويل هنا يومَ الميلاد كالعادة، فناموا هنيئًا، وستكون جواربُكم ملأى بالهدايا، إلى آخره. إنّ النخب السياسية تعامِل مواطني أميركا وأوروبا الغربية بالطريقة ذاتها، وبوتيرة متزايدة. لكنّ ذلك كلَّه لا يؤدّي إلاّ إلى زيادة **الشكّ** حيال عمل الجهاز «الديموقراطي.» وسواءٌ أكان قادةُ هذا الجهاز واعين بما يعملون أَمْ غيرَ واعين، فإنّ حصيلةَ ذلك هو إضعافُ الديموقراطية وإضعافُ المحاسبة بشكل تامّ.

إنّ لدينا ديكتاتوريةً من الرأسمال وديكتاتوريةً من الإمبراطورية، تَسْحَق وتَحْدل كلَّ شيءٍ في طريقها. فإذا لم يَعْرف الناسُ الحقيقةَ، فكيف يكونون مواطنين يقظين؟ بل يستحيل أن يكونوا **مجرّدَ** مواطنين إنْ لم يُعْطَوْا الحقيقةَ. لذا فإنّ ما يحدث اليوم مقلقٌ بشكلٍ بالغ. وهذا يفسِّر لماذا يستطيع الرئيس بوش أن «يَزْمط» بأقوالٍ كالتي أوردتَها قبل قليل.

في رواية أورويل ١٩٨٤، هناك وزارةٌ للحقيقة. وفي هذه الوزارة ثمة ثقبٌ للذاكرة، تختفي فيه كلُّ الحقائق غيرُ المناسبة. دعني ألفت انتباهَك إلى صورةٍ التُقطتْ عامَ ١٩٨٣، وفيها يصافح دونالد رامسفلد (مبعوثُ رونالد ريغان إلى الشرق الأوسط) صدّام حسين في بغداد. طارق عزيز يقف إلى يمين صدّام حسين. إنّ هذه المعلومة نزلتْ إلى ثقب الذاكرة!

هذا ليس المثالَ الأوحد. هناك عدةُ معلومات مماثلة تُحجَبُ عن الرأي العامّ. من ذلك أنّ الديبلوماسيين البريطانيين والأميركيين كانوا يلتقون صدّام حسين بشكلٍ دوريّ. ومن ذلك أيضًا أنّ وفدًا من مجلس الشيوخ الأميركي برئاسة بوب دولْ ذهب لزيارة صدّام حسين عام ١٩٩٠ واعْتَذَرَ له عن تقرير نقديّ نوعًا ما بُثّ على «صوت أميركا» عن ارتكاباته، وقال له إنّ ذلك الصحفيّ كان مسطولاً لا يَعْرف ما يَفْعل، وحاول الوفدُ أن يَشْرح لصدّام حسين أنّ عليه أن يَفْهم «أنّهُ لا يُمْكنُ ضَبطُ كلّ شيء في الأنظمة الديموقراطية» (مع أنّ هذه الأنظمة، نجحتْ كثيرًا في هذا منذ ذلك الوقت). إذنْ أنتَ أمام أشخاص داخل أعلى مراتب الإستابلشمنت، السياسية والعسكرية الغربية، يبرّرون أعمالَ صدّام. إنّ أسوأ أعمال صدّام القمعية ضدّ شعبه تمّت حين كان حليفًا قويّاً للغرب. وحتى أولئك المتنوّرون الذين كانوا في المعارضة آنذاك، أمثال طوني بلير وروبن كوك وجف هون، رفضوا التوقيعَ على مرسومٍ تَقَدَّم به أعضاءُ حزب العمل الراديكاليون إلى البرلمان يَشْجبون فيه استخدامَ الأسلحة الكيماوية في حلبجة. إلى هذه الدرجة كانت المؤسّسة [الإستابلشمنت] متحالفةً مع حسين!

لذا سيكون جرأةً كبرى أن يستديرَ هؤلاء ليُخْبروا الشعبَ أنّهم يفعلون ذلك لمصلحة الحريّة. فالحقّ أنّهم يفعلون ما سبق للإمبراطوريات جميعها أن فعلتْه: إنّهم يتصرّفون بدافعٍ من مصالحهم الخاصة. إنّ ثمة قانونًا حديديّاً للإمبراطورية، منذ القديم إلى يومنا الحاضر، وهو أنّ الإمبراطوريات تتصرّف من أجل مصالحها الخاصة. فمصالحُ هؤلاء الخاصة تطلّبتْ أن يتمّ بناءُ طرقٍ من لندن إلى اسكتلندا لكي تستطيعَ الفيالقُ الرومانيةُ التنقّلَ من مكان إلى آخر بأقصر الأوقات الممكنة. كما احتاجت الإمبراطوريةُ البريطانيةُ إلى تشييد سكك حديدية في الهند لكي تُنقلَ الجيوشُ والحبوبُ بسرعةٍ لتفادي مشاكل التخمير. واليوم يُشار إلى ذلك وكأنّه إنجازاتٌ كبرى للإمبراطورية، في حين أنّها إجراءاتٌ تمّت لأنّها ناسبتْ أولئك الناسَ ولأنّها كانت في صالحهم، لا من أجل تحسين البنى التحتية الاجتماعية لبريطانيا الرومانية أو للهند في القرن التاسع عشر.

إن أسوأ أعمال صدّام ضدّ شعبه تمّت حين كان حليفًا قويّاً للغرب: استخدام الأسلحة الكيماوية في حلبجة

في العام الذي زار فيه رامسفلد بغدادَ (١٩٨٣) ـ وأتْبَع ذلك بزيارةٍ ثانية ـ أسقطتْ إدارةُ ريغان العراقَ من لائحة وزارة الخارجية الأميركية للدول الإرهابية. وفي ذلك العام استخدم العراقُ أسلحةً كيماويةً ضدّ إيران.

لقد كان الغربُ على أتمّ العلم بذلك، ولم يكن مشكلةً كبيرةً لهم لأنّ إيران كانت آنذاك العدوَّ الكبير. ولقد خيضت حربُ صدّام حسين ضدّ إيران بموافقةٍ كليّةٍ من الغرب، فزوّدتْه بريطانيا والولاياتُ المتحدة بالأسلحة والعتاد والمشورة السياسية لأنّهما أرادتا هزيمةَ الملالي الإيراني. كانتا تخشيان وقتَها من أن تمتدّ الثورةُ الإسلاميةُ في إيران إلى الخليج العربي، وأن تدمّر الملكيةَ السعودية. لذا، لجأتا إلى صدّام حسين، وكان عَوْنًا جيدًا جداً لهما.

ولأنّ صدّام حسين كان كذلك، فقد افترض أنّ الولايات المتحدة وبريطانيا ستكونان حليفتيْه إلى الأبد. ولأنّه ليس إنسانًا ذكيّاً جداً، فقد ظنّ أنّه لا غنى للغربِ عنه، ولم يُدركْ أنّ مصالح الغرب تتغيّر بمرور الزمن، بحيث يصبح أعداءُ الأمس أصدقاء وأصدقاءُ الأمس أعداءً، حسب المصالح. وحين أصبح صدّام ممّن يُمْكن الاستغناءُ عنهم، وخاصةً حين قال الإسرائيليون إنّ الجيش العراقي صار قويّاً جداً ويجب تدميرُه، بدأت الولاياتُ المتحدةُ العملَ على هذا الهدف.

إنّني بالغُ التحسُّس حيالَ أيّة نظرية من نظريات المؤامرة، ولكنْ يَصْعب ألاّ نستنتجَ أنّ صدّام حسين قد خُدِع في ما يخصّ اجتياحَ الكويت. لقد شجّعوه [البريطانيون والأميركيون]، فأَقْدَم على عمله، ثم انقلبوا عليه، ودَمَّروا جيشَه.

حدِّثْنا أكثر عن ذلك؛ فهذا ـ من جديد ـ جزءٌ من فقدان الذاكرة التاريخية. فقد التقت إيْپرِلْ غلاسپي، وكانت حينَها سفيرةَ الولايات المتحدة في بغداد وتُتْقن اللغةَ العربية، صدّام حسين في ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٩٠.

حصل الاجتماعُ في مكتب صدّام حسين. الحاضرون: طارق عزيز، وموظّفون عراقيون آخرون، فضلاً عن غلاسپي ومساعديها. وجرت المناقشةُ باللغة العربية، وكانت غلاسپي من القلائل في وزارة الخارجية الأميركية الذين يَعْرفون اللغةَ العربية، ويَفْهمونها ويتحدّثون بها بشكل جيِّد جداً. إذن لم تكن ثمة إساءةُ فهمٍ أو إساءةُ تأويلٍ قد يرتكبها مترجِمٌ ما.

أَوْضح صدّام حسين لها أنّ الكويتيين يستفزُّونه (وهذا بالمناسبة صحيحٌ)، وقال إنّهم إذا واصلوا أفعالَهم على ذلك النحو، وواصلوا محاولتَهم سرقةَ النفط العراقي، فإنّ عليهم أن يُلَقَّنُوا درسًا. أجابت غلاسپي أنّ الولايات المتحدة مدركةٌ لموقفهم [العراقيين] ومتعاطفةٌ معهم. وأيّاً كانت الكلمات التي استخدمتْها غلاسپي بدقة، فمن الواضح ممّا جرى لاحقًا أنّ صدام حسين اعتبرَ ذلك بمثابة ضوء أخضر لغزو الكويت. والحال أنّه ليس ثمة نظامٌ عراقيٌّ واحدٌ منذ تشكّلِ الدولة وافق على فصل الإمبراطورية البريطانية للكويت عن العراق؛ فلقد كانت الكويتُ جزءًا من ولاية البصرة. ولذلك حين انتَزَعتْ بريطانيا الكويتَ من العراق، شَعَرَ كلُّ العراق وعددٌ كبيرٌ من الكويتيين بعدم الرضى عن ذلك.

أُعطي صدّام ضوءاً أخضر من السفيرة الأميركية، فأَقْدم على غزو الكويت، ثم صُدم بقرار أميركا إزاحتَه!

حين أُعطي صدّام ما افتَرَض أنّه ضوءٌ أخضر من السفيرة الأميركية، ظَنَّ أنّه يستطيع أن يُنْهي المسألةَ مرةً واحدةً وإلى الأبد وأن يصبح ـ في الوقت نفسه ـ بطلاً لكلّ العراقيين، فأَقْدَم على فعلته. لكنّه صُدِمَ تمامًا حين قَرّرت الولاياتُ المتحدة إزاحتَه بالقوة. في أول الأمر ظنّ أنّ الأمر «بَلْفة» [خدعة]: أيْ أنّ الأميركيين يتظاهرون باتّخاذِ مواقفَ لإرضاء الجمهور الأميركي أو أصدقائهم في الشرق الأوسط. وفكّر: كيف يمكن أن يَفْعلوا ذلك بعد أن أَعطوْه الضوءَ الأخضر؟ ثم تمّ نقلُ غلاسپي من العراق، وأعتقد أنّهم أرسلوها إلى مكانٍ في أفريقيا يعادل سيبيريا في أميركا(!)، وهناك فقدنا آثارَها.

لقد أخبرني إدوارد سعيد ذاتَ يوم أنّه التقى غلاسپي مصادفةً في إحدى الفعاليّات في نيويورك أو واشنطن، وسألها عن ذلك اللقاء القاتل مع صدّام حسين. «لِمَ لا تكتبين عنه؟» سألها. وقال لي إنّها لم تكن تريد أن تتحدّث عن الأمر على الإطلاق. لكنّها امرأةٌ تستطيع أن تكتب الحقيقةَ إنْ قرّرتْ ذلك. وفي النهاية فإنّ حياتَها المهنيةَ توشك على النهاية. إذن، ماذا تبقّى ليُحجَبَ بعد اليوم عن الجمهور الأميركي؟ كلّنا سنستفيد [إنْ كتبتْ غلاسپي حقيقةَ ما جرى].

يكتب شالمرز جونسون، في كتابه أحزان أمبراطورية، **أنّ الولايات المتحدة تَمْتلك أكثر من ٧٠٠ قاعدة عسكرية في أكثر من ١٠٠ بلد. وهذا يشكّل مستوًى من القوى والهيمنة غيرَ مسبوق في التاريخ. إنّه سِلْم أميركيٌّ Pax Americana مفروضٌ بقوّة الواقع. بل سمّته** مجلةُ مونثلي ريڤيو **Pox Americana (الجدريّ الأميركي). ماذا يستطيع الناسُ أن يفعلوا إزاء هذا الوضع؟**

إنّ الناس الذين شُيِّدتْ في بلدانهم قواعدُ عسكريةٌ من دون موافقتهم يستطيعون بالتأكيد أن يبدأوا حملاتٍ تطالب بسحب القواعد العسكرية الأميركية. إنّني منذ مدّةٍ أُحاجج بأنّ على «المنتدى الاجتماعي العالمي» وأقسامه المكوِّنةِ له أن تجعل من انسحاب القواعد العسكرية الأميركية من أنحاء العالم المختلفة هدفًا لحملةٍ كبرى.

الطريقة الأخرى، وهي أهمّ من نواحٍ عدة، هي أن يَفْهم الناسُ في الولايات المتحدة نفسها أنّ أحد أسباب حصولهم على رعاية صحيّة سيِّئة، وأحدَ أسباب الاعتداءات الكبرى على نظام الرعاية الاجتماعية وعلى التأمين الصحي الرسمي، هو أنّه لا يمكن استمرارُ دولة الرعاية إنْ واصل العسكرُ مطالبتَهم بالمال. بل إنّ المحاربين القدامى داخل الجيش الأميركي نفسه غاضبون لتقلُّص تعويضاتهم؛ ذلك لأنّ إعطاءهم تعويضاتٍ لائقةً ومستوًى لائقًا من العيش مستحيلٌ بسبب كل الحروب التي تُخاض وبسبب احتياجات العسكر الأميركيين والنظام الإمبريالي الحالي. وأعتقد أنّ هذا أمرٌ لن يخوض أيٌّ من الحزبين السياسيين اللذيْن يديران الإمبراطورية الأميركية حملةً من أجل تطبيقه. ولكنّه أمرٌ يَنْبغي على طرفٍ **ثالث** أن يبدأ بالعمل عليه ـ وأنا أتكلّم عن طرف ثالث غير موجودٍ حاليّاً ـ بحيث يذهب إلى القواعد، ويتكلّم مع الناس، ويقول لهم: «أنتم لستم عاجزين. باستطاعتكم البدء بتغيير الوضع إذا نَشِطْتُم، وإذا لم تكونوا معتمدين كليّاً على أن يَنُوب عنكم الجمهوريون والديموقراطيون، بل انتخِبوا أناسًا تثقون بهم حقّاً، أناسًا لا يتقاضوْن الأموالَ من الشركات الكبرى ولا هم مَدينون للمصالح الجبّارة.»

إذن الحلُّ هو مزيجٌ من النضال خارج الولايات المتحدة وداخلها. أَعْلم أنّ هذا بعيدُ المنال، ولكنّي أعتقد أنّ ذلك سيَحْدث في النهاية.

الولايات المتحدة حاليّاً تَصْرف على العسكر أكثرَ ممّا تَصْرفه الدولُ الخمسَ عشرةَ التالية مجتمعةً. ولقد قيل إنّ اللجوء الأميركي إلى القوة العسكرية ليس دليلَ قوة بل ضعف. ما رأيك؟

أعتقد أنّ هذا صحيح جزئيّاً، لكنّ علينا أن نكون حذرين لأنّ الناس ـ وبخاصةٍ الناس المُعادون لكلّ هذا ـ يبحثون دومًا عن جانبٍ مُشرقٍ ما. ولا شكّ أنّه سيحين أوانُ انبثاق هذا الجانب المشرق، غير أنّ علينا أن نَفْهم اليوم أنّ القوة الأميركية لم تكن يومًا أقوى ممّا هي عليه. إنّ الولايات المتحدة لا تتحدّاها اليوم في العالم أيّةُ دولةٍ أخرى.

أمّا اقتصاديّاً، فالحكاية مختلفة. الاقتصاد الأميركي ضعيف. وإذا عامَلَ صندوقُ النقد الدوليّ الحكومةَ الأميركيةَ كما يعامِل كثيرًا جدّاً من الحكومات في أميركا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، فإنّه سَيُفْرض على تلك الحكومة معاييرَ توجيهيةً صارمةً جدّاً. لكنْ، بالطبع، كلُّ القوانين التي تنطبق على بقية العالم ـ سواء أكانت حقوق الإنسان أمْ جرائم الحرب أمْ معايير الصندوق الدولي ـ لا تنطبق على الولايات المتحدة. والحال أنّ ضعف الاقتصاد الأميركي وبروزَ منافسين اقتصاديين آخرين يَطْرحان سؤالاً كبيرًا على الإمبراطورية الأميركية، وهو: هل أنتِ مستعدّةٌ لاستخدام القوة للحفاظ على قوتك الاقتصادية؟

أعتقد أنّ الجواب هو نعم. واحتلال العراق ناجمٌ، جزئيّاً، عن تأكيد القوة الإمبريالية العارية، ولكي تقول أميركا لبقية العالم ولكتلة الشرق الأقصى، للصين واليابان وكوريا الجنوبية، المعتمدةِ جميعها على النفط، «إنّنا نتحكّم بالنفط. تستطيعون أن تَحْصلوا عليه طبعًا لأنّ لدينا ما يكفينا، لكنّنا نتحكّم به. وكلّما خرجتم عن الخط [المرسوم لكم] نستطيع أن نقطعَ النفطَ عنكم.» ذلك كان الهدف [من احتلال العراق]. لم يحصل ذلك [أيْ قطعُ النفط عن تلك الدول] بعدُ، وقد لا يحصل أبدًا، ولكنْ هذه هي طريقةُ تفكير الأميركيين. بكلمات أخرى، إنّهم يحاولون استخدامَ القوة العسكرية الأميركية لتجاوز ضعفهم الاقتصادي. إنّ الولايات المتحدة ضعيفة اقتصاديّاً، ولكنّها قوية عسكريّاً.

والآن، ماذا عن السياسة والإيديولوجيا؟ إنّ الولايات المتحدة في هذا المجال، ومنذ انهيار الشيوعية، مهيمنة تمامًا. وهذا ما يسمّونه «الإمبرياليةَ الناعمة.» فلقد احتلّت هوليوود، وعروضُ الألعاب والبرامجُ الخفيفة على التلفزيون الأميركي، العالَمَ كلَّه. التلفزيون الأوروبي مليءٌ بها، وكذلك التلفزيونُ الآسيوي. حتى المواطنون الصينيون يشاهدون برنامجَ «الأصدقاء» Friends. إنّه عالمٌ غريب، ذاك الذي نعيش فيه الآن!

الأميركيون يحاولون استخدام قوتهم العسكرية لتجاوز ضعفهم الاقتصادي

بالنسبة إلى مَنْ يتحدّثون عن الانتشار [الأميركي] إلى ما وراء الحدود، صحيح أنّ ذلك ممكنٌ عسكريّاً، وقد يؤدّي إلى هزائم [أميركية] قد تبدأ بتغيير الأوضاع. ولكنّني أعتقد أنّنا مازلنا بعيدين عن ذلك. فليست الهيمنة الإيديولوجية والعسكرية الأميركية الآن أمرًا يُمْكن هزيمتُه بسهولة. وعلى المرء أن يكون واقعيّاً في هذه النقطة، وإلاّ ضَلَّلَ الناسَ. صحيح أنّ ما يجري في العراق مهمّ جدّاً، لكنْ لنرَ ما سيَحْدث.

ثمة شخصية لافتة في التاريخ الأميركي هي اللواء سمَدْلي بَتْلِرْ. وأنت في خُطَبِك وكُتُبك تُشير إليه. ولكنّه ليس شخصية معروفة. حَدِّثْنا عنه.

هناك حالةٌ مثيرة تَحْدث أحيانًا في بلدان مثل الولايات المتحدة، وهي أن ينشقّ بعضُ الأشخاص الذين كانوا في قلب النظام عنه! فهم يشاهدون ما يَحْدث، ويَسْمعون الأكاذيبَ، فيقرّرون أنْ يُخبروا الحقيقة. وعلى مستوى أقلّ، ولكنْ مهمّ بالنسبة إلينا، قرارُ دانيال ألسبرْغ تسريبَ أوراق البنتاغون أثناء حرب ڤيتنام لأنّه لم يستطع أن يواصِلَ هَضْمَ عواقب تلك الحرب على بلده وعلى الڤيتناميين.

أما سمْدلي بتلر فحالةٌ مختلفةٌ تمامًا. فهو جنرال أميركيّ وُلد عام ١٨٨١، وانضمّ إلى سلاح البحرية الأميركية وخَدَم فيه ثلاثة وثلاثين عامًا، وأصبح واحدًا من أكثر الجنرالات نَيْلاً للأوسمة وآياتِ التمجيد في تاريخ الولايات المتحدة. لكنّ بَتْلِر بحلول نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن العشرين ـ كان قد شَرَعَ بالتشكيك في ما يَفْعله، ثم انقلب عليه. فبعد أن غادر العملَ العسكريَّ بدأ فجأةً في تأمُّلِ ما فعله حين كان جنرالاً أميركيّاً. وإنّني هنا أقتبس من كتابي **صِدام الأصوليّات**، وتحديدًا من خطابٍ ألقاه عامَ ١٩٣٣:

«الحرب ليست إلاّ خدعة. وأفضلُ وصفٍ للخدعة، كما أعتقد، هي أنّها أمرٌ مخالفٌ لما يبدو عليه لأغلبية الناس. إنّ مجموعة صغيرة في الداخل فقط تَعْرف ماهيتَه، وهو يتمّ لصالح القلّة القليلة على حساب الجماهير.

«إنّني أؤمن بضرورة الدفاع الكافي عن خطّ الساحل، ولا شيء غير ذلك. فإذا قِدمتْ أمةٌ أخرى لمحاربتنا هنا فسنحاربُها. مشكلة أميركا هي أنّه حين يَحْصد الدولار ٦٪ فقط من الأرباح هنا، تتململ أميركا وتذهب إلى ما وراء حدودها من أجل أن تَحْصد ١٠٠٪. وبعد ذلك يَتْبَعُ العَلَمُ الدولارَ، ويَتْبع الجنودُ العَلَم.

«لن أذهب إلى الحرب من جديد، كما فعلتُ سابقًا، من أجل حماية استثمارٍ خسيسٍ لأصحاب المصارف. هناك أمران فقط يَنْبغي أن نحارب من أجلهما: الأول هو حماية بيوتنا، والثاني هو ميثاق الحقوق Bill of Rights. وأما الحرب لغير هذيْن السببيْن فخديعةٌ فقط.»

ويواصل سمدلي بَتْلِر خطابَه فيصف ما فعله للشركات:

«لقد ساعدتُ في أن أجعل المكسيك، وخاصةً تامپيكو، آمنةً للمصالح النفطية الأميركية عام ١٩١٤. وساعدتُ في جعل هاييتي وكوبا مكانًا ملائمًا لصبيان بنك ناشيونال سيتي ليحصّلوا المداخيل فيهما. وساعدتُ في اغتصاب نصف دزينة من جمهوريات أميركا الوسطى لصالح وول ستريت [شارع المصارف والبورصة في نيويورك]. إنّ سجلّ الابتزاز طويل. ولقد ساعدتُ في تنقية نيكاراغوا لصالح الأعمال المصرفية للإخوة براون بين عام ١٩٠٩ و١٩١٢... وجلبتُ النّورَ لجمهورية الدومينيكان من أجل مصالح السكّر الأميركي عام ١٩١٦. وفي الصين ساعدتُ في أن أَضْمن ألاّ تتعرض شركة ستاندر أويْل النفطية للإزعاج. وبالنظر إلى الوراء، أشعر الآن أنّه كان بمقدوري أن أُعطي آل كاپوني [المافيوزي الشهير] بعضَ المشورة!»

حين تستمع إلى جنرال أميركيّ كَتَبَ هذه الكلمات، ثم تَنْظر إلى ما يَحْدث اليوم في العراق، فستلاحظ أنّ الأمر نفسُه تمامًا. فقط غيِّرْ أسماءَ الشركات إلى بَكْتل وهاليبرتون، وستَحْصل على الخديعة نفسها لصالح القلة القليلة وعلى حساب الجماهير لا في العراق فقط بل في الولايات

لقد مات ١٠٠ ألف عراقي، و١٨٠٠ أميركي حتى الآن، لكي يكون العراق آمنًا للرأسمال الأميركي

المتحدة أيضًا. لقد مات مئة ألف عراقي من أجل أن يكون العراقُ آمنًا للرأسمال الأميركي. عدّة آلاف من الصبْيَان والبنات [الغربيين] جُرحوا أثناء الحرب في العراق، وأكثر من ١٤٠٠ قُتلوا في العراق [الآن أكثر من ١٨٠٠ ـ المترجم] من أجل جَعْلِ العراق آمنًا للرأسمال الأميركي. وأعتقد أنّ كتاب سِمْدلي بَتْلر وخطبه يجب أن تكون قراءاتٍ مقرَّرةً على كل السياسيين. نعم، نَعْلم طبعًا ما سيقولون: «آه سَمْدلي جُنّ. فَقَدَ صوابه.» ولكنّ الحقيقة هي أنّه **استرجَعَ** صوابَه.

كتاب سمدلي بَتْلر عنوانُه: الحرب خدعة. بعد أن تقاعَدَ من سلاح البحرية أصبح ناطقًا باسم «الرابطة المناهضة للحرب والفاشية.» وكان أحد شعارات الرابطة: «انزعوا علامةَ الدولار عن أعلامِ الحرب.» ولكن لنعدْ إلى الحاضر وإلى ما أسْماه المعلّق المحافظ جورج وِلْ «الخَبْصة في بلاد ما بيْن النهرين» (Mess in Mesopotamia). ما هي استراتيجية الخروج الأميركي من العراق، إنْ وُجدتْ؟ في إحدى افتتاحية مونثلي ريڤيو الأخيرة كتب المحرِّرون: «إنّ الولايات المتحدة تواجه احتمالَ هزيمةٍ كبرى في العراق، يُرجَّح أن تشكّل انتكاسةً خطيرةً للحملة المتواصلة من أجل توسيع الإمبراطورية الأميركية.» ليس مستغربًا جداً أن نقرأ مثلَ هذا التحليل في هذه المجلة، ولكنْ حتى في الدوائر السياسية للاستابلشمنت [المؤسسة الحاكمة]، ثمة أشخاص مثل السناتور تشاك هاغل (عن نبراسكا) يتحدّثون عن الخروج من العراق.

لقد كانت هذه الحرب كارثةً للجميع. ولكنّها كارثة شاملة لشعب العراق، الذي عانى أسوأ من الآخرين. وعلى المرء ألاّ يَنْسى ذلك: فالناس في الولايات المتحدة يَشْكون ويَنْدبون من وقوع الضحايا الأميركيين، وهو أمرٌ أفهمه؛ لكنّ العراقيين هم الذين تعرّضوا لأكبر عدد من الضحايا، أكبر بما لا يقاس من كلّ الآخرين.

وإنّ ما يُذْهلني دومًا ـ أعتقد أنّه يجب ألاّ يذهلني الآن ـ هو أنّ الليبراليين أصحابَ النوايا الحسنة، الشرفاء، وكثيرٌ منهم معادون للحرب، لا يستطيعون أن يَفْهموا ضرورةَ المطالبة بالانسحاب الفوري غير المشروط للقوات الأجنبية من العراق.

أعتقد أنّ هناك الكثيرين في المؤسسة الحاكمة الأميركية يَفْهمون ذلك، بمن في ذلك معلّقون محافظون. ولكنْ مجلة **شؤون خارجية**، وهي مجلة تابعة لهذه المؤسسة وذاتُ روابط بوزارة الخارجية الأميركية، نشرتْ مقالين، الأول لإدوارد لوتْ واك، والثاني لجايمس دوبِنْز، يطالبان بانسحاب فوريّ أميركيّ قبل أن تزداد الأمورُ سوءًا. ولكنْ للأسف ليس ذلك ما يُدْركه رامسفلد وكوندي رايْس. فأجندةُ المحافظين الجدد ما زالت هي هي. وهم الآن يهدِّدون إيران، ويتحدّثون عن عملياتٍ جراحيةٍ ضدّها من أجل حَصْدِ ما قد يبدو أشبهَ بالنجاح. هذا هو السبب الرئيسي لذلك التهديد، عدا ضغط الإسرائيليين. لكنّ ما لا يُمْكن التشكيكُ به الآن هو أنّ الحرب في العراق اتّجهتْ وتتّجه نحو السوء الشديد.

إذن، ماذا تستطيع الولاياتُ المتحدة أن تفعل؟ لننظرْ قليلاً إلى الأمر من وجهة نظرها. لو كنتَ تقود الإمبراطوريةَ الأميركية، ورأيتَ أنّ ثمّة أمورًا تتّجه إلى السوء الشديد، فإنّ ما ستحاول أن تَفْعله، نظرًا إلى تقاليد الإمبراطورية الأميركية نفسها، هو أن تَسْحب قواتِك وتنصِّبَ نظامًا ينفِّذ أوامرك، من دون وجود القوات الأميركية. وهذا أمرٌ مُمْكن في عدة دول بالطبع، ومصر مثالٌ جيد: فليس في مصر قواتٌ أميركية، لكنّ مصر تنفِّذ أوامرَ أميركا لأنّ الديكتاتورية العسكرية التي أكَلَها العُثُّ تتلقّى أموالاً طائلةً كلّ عام من الولايات المتحدة. ومن المحتمل جداً أن تقول العصابةُ المنتخَبة في العراق في ٣٠ كانون الثاني للولايات المتحدة: «يمكنكِ الاعتمادُ علينا. سننفِّذ أوامرَكِ. عليكِ أن تسحبي قواتك، ولكنْ عليك أن تتركي قاعدةً عسكريةً واحدةً، فقط في حال احتياجنا لمساعدتك.» وستُغْرى الولاياتُ المتحدةُ بهذا الخيار، وقد تستجيب له. ولكنْ ما يعاكس ذلك هو أنّ الناس المنتَخَبين في ظلّ احتلالٍ أجنبي، ويعتمدون على جيشِ احتلالٍ أجنبي،

العراق هزم الأميركيين سياسيّاً، وهم اليوم في «خبصة» مهما فعلوا!

لا يستطيعون أن يتخلّوْا عن اعتمادهم هذا بين ليلةٍ وضحاها؛ ولذا قد نكون إزاء كتلة كبيرة من السكّان يحاولون التخلُّصَ من هذه الحكومة بسرعة كبيرة. فإذا كانت الجيوش الأجنبية المحتلّة ما تزال هناك، فلن يكون سهلاً أن تَخْرج من هذه الخَبْصة. إنّ السياسة الإمبريالية الأميركية التقليدية، القاضية بإيجادِ ديكتاتوريين عسكريين أو سياسيين طيّعين ينفّذون سياساتها، لن تكون أمرًا سهلاً في العراق.

إنّه لَيَصْعب فعلاً أن يَعْرفوا ما يفعلون. من جهتنا، طبعًا، كلّما بَكّرت القواتُ الأجنبيةُ في مغادرة العراق، كان ذلك أفضلَ لشعب العراق. لن يكون الأمرُ ممتعًا فور رحيل هذه القوات، غير أنّ كلّ قوة كولونيالية وإمبريالية في التاريخ تقول: «آه، نحن لا نستطيع أن نغادرَ بسبب الخَبْصة التي ستَنْجم عن ذلك.» لكنْ علينا، بدلاً من ذلك، أن نقول: «انظروا إلى الخَبْصة التي **خلقتموها**. إنّ كلّ ما سيَنْجم سيكون أكثر انبثاقًا من المجتمع المحلي، وسيحسِّن الأوضاع.»

إنّ جنودَ الاحتياط يتبخّرون. فماذا ستَفْعل الإدارةُ الأميركية؟ الجواب الجديّ الوحيد هو التجنيد الإلزامي، أيْ أن يُدفع أولادُ الطبقتيْن الوسطى والعليا إلى الجيش ليحاربوا. ولكنّنا نَعْلم ما حدث حين جُرِّبَ هذا الخيار في ڤيتنام: لقد أَرْسى أساسَ الحركة الشعبية الهائلة المعادية للحرب! وفي حالة العراق، وإذا كانت آخرُ استفتاءات الرأي العامّ دقيقةً، فإنّ أغلبية الأميركيين اليوم يعتقدون أنّ الحرب على العراق كانت غلطةً. فإذا صَحّ ذلك، والأرجحُ أنّه صحيح، فإنّ فَرْضَ التجنيد الإلزامي سيؤدّي إلى انفجار كبير داخل الولايات المتحدة نفسِها، وسرعان ما ستجد أعضاء من الكونغرس ومجلس الشيوخ، سَبَقَ أن دَعَموا الحربَ وصَمَتوا عن نقدها ودافعوا عن الإدارة، ينقلبون على الحرب حين يشعرون بالضغط القادم من القاعدة السفلى.

إذن، إنّهم في خبصة. أيّاً كان ما يَفْعلونه سيكون خبصةً لهم. ومن هذه الزاوية فإنّ من المشروع أن نقول إنّ العراق هزيمةٌ لهم، حتى منذ الآن. الأميركيون لا يُمْكن أن يُهْزموا عسكريّاً، لكنّهم ـ واقعًا ـ قد تعرَّضوا سياسيّاً لهزيمة كبيرة.

جُنَّ العالم بأسره حين دَمّر الطالبان تماثيلَ بوذا، ولكنْ أين العالم حين تدمَّر آثارُ العراق؟

ارونداتي روي (الهندية) ونعومي كلاين (الكندية) وآخرون دعوا إلى دَفْع تعويضات أميركية للعراق. ما حظوظ هذه الفكرة من النجاح والانتشار؟

لن تتحقّق هذه الفكرة إلاّ إذا اقتنعت الولاياتُ المتحدةُ بأنّ الحكومة هناك دميةٌ تنفّذ أوامرَها تمامًا. إذّاك يرجَّح أن يزوِّدوها [الأميركيون والبريطانيون] ببعض المال لإعادة بناء العراق. ولكنْ اقرأْ ما أوردتْه مؤخّرًا الصحافةُ البريطانية على لسان فِرق من علماء الآثار الزائرين. فقد قال اللورد رَدْسدايْل، وهو عالِمُ آثارٍ بريطانيّ بارز ورئيسُ فريقٍ آثاريّ يَحْظى بقبول كلّ أحزاب البرلمان: «الفظاعة ليست أفضلَ كلمة [تعبِّر عن الحال].» قال ذلك بعد أن رأى أسسَ مدينة بابل العريقة مهدَّمة. وقال: «هذا بغيض. هذه مواقع عالمية. إنّ ما تَفْعله القواتُ الأميركية ليس تدميرَ آثار العراق فحسب، بل هي تدمّر في الواقع التراثَ الثقافيَّ **للعالم** أجمع.»

لعلَّكَ تَذْكر أنّ العالم بأَسْره جُنّ حين دَمّرَ الطالبان تلك التماثيلَ المدهشةَ في جمالها، تماثيلَ بوذا العملاقةَ في باميان. فقد اعتُبر ذلك من علاماتِ بربريةِ حركةِ الطالبان. ولكنْ أين العالَمُ حين تُرتكب الفظائعُ والشناعاتُ بحقّ الآثار في العراق؟ هذه هي المعايير المزدوجة التي تَجْعل الناسَ في الجنوب يستَشيطون غضبًا من الشمال. ومواطنو الشمال يتعامَوْن عن ذلك؛ إنّ ما يجري يتمّ أمام أعينهم، ويقرأونه في جرائدهم، ولكنّهم لا يفعلون شيئًا.

التقرير الذي ذكرتَه عن تحطيم المواقع الأثرية في بابل هو من جريدة الغارديان. وأنت، بالطبع، لك كتابٌ بعنوان بوش في بابل، **ولو قدِّر لك أن تكتب تتمةً له لكان اسمُه:** بوش مايزال في بابل!

الطبعة الجديدة من هذا الكتاب تحتوي فصلاً طويلاً، بموادّ إضافية كثيرة. آمل ألاّ يكون عليّ أن

أكتب كتابًا جديدًا عن العراق، ولكنْ قد يكون ذلك واجبًا حين تَخْرج الولاياتُ المتحدة. ما يحزنني بشكلٍ كبير هو أنّ العراق كان من أكثر الأماكن في العالم العربي ثقافةً وتقدُّمًا، حتى في ظلّ حكم البعث. لقد كان مستوى التعليم عاليًا جداً، وكانت هناك نساء متعلّمات في العراق أكثر ممّا تجد في أيّ بلدٍ عربي آخر، وكانت هناك طبيبات أكثر، وعاملاتٌ اجتماعياتٌ أكثر، من أيّ مكان آخر في العالم العربي. لقد تمّ تدميرُ البنية التحتية الاجتماعية العراقية أولَ الأمر بسبب العقوبات المرعبة التي فَرَضها الغربُ والأمم المتحدة، وبسبب القصف طوال اثنيْ عشر عامًا، والآن بسبب الاجتياح والاحتلال. إذن، نحن إزاء بلدٍ دَمّرَه الغربُ فعليّاً، وباسم «الحرية.» اللعنةُ على مثل هذه الحرية!

الولايات المتحدة مليئةٌ بالتناقضات، ونستطيع أن نرى ذلك في الإعلام. فثمة برامج مثل «الراديو البديل» [الذي يديره دايفيد برسميان ـ المترجم]، وبرنامج ايمي غودمان «الديموقراطية الآن!»، وأمثلة أخرى على الفضاءات الموجودة للمعارضة في الولايات المتحدة. ما ردُّكَ حين تَسْمع أشخاصًا يسمّون الولاياتِ المتحدةَ دولةً فاشستيةً؟

هذا سخيفٌ تمامًا. لطالما هاجمتُ ذلك المفهوم. إنّ استخدام كلمة «فاشستية» بخفّة لا يساعد أحدًا، سواء استخدمها اليسارُ لوصف الولايات المتحدة أو استخدَمَها اليمينُ أو اليمينُ الجديدُ ـ أمثال كريستوفر هيتشنز وفرانسِسْ فوكوياما وآخرين ـ لوصف المسلمين الذين يحاربون الإمبراطورية... فلقد كانت الفاشستية أمرًا محدَّدًا بشدّة، وفي مرحلة معيّنة. وعليه، فإنّ مهاجمة الولايات المتحدة بوصفها فاشستيةً أمرٌ أحمق. وبدلاً من وصف الولايات المتحدة بالفاشستية أقول إنّها تذكّر كثيرًا بروسيا زمنَ بريجينيف أو الاتحاد السوفياتي الذي تقوده طبقةٌ متعفّنةٌ من المُسِنّين والمزعجين الذين يتجسّسون على الناس، وبواسطة إعلامٍ مضبوطٍ ضبطًا كاملاً. ولكنْ حتى ما ذكرتُه ليس قياسًا دقيقًا لأنّ أميركا ليست على هذا النحو تمامًا، غير أنّ هناك **عناصرَ** من ذلك في الثقافة الرسمية للولايات المتحدة. هذه الثقافة تصبح «ميّتة» كثيرًا [غير حيوية]، أحادية جداً، كيفما نظرتَ إليها. وأن تُنتج هوليوود فيلمًا عن سقوط الفلّوجة من أجل الاحتفال بما فعله المارينز في هذه المدينة أمرٌ مذهل مروِّع. لا شيء يتغيّر.

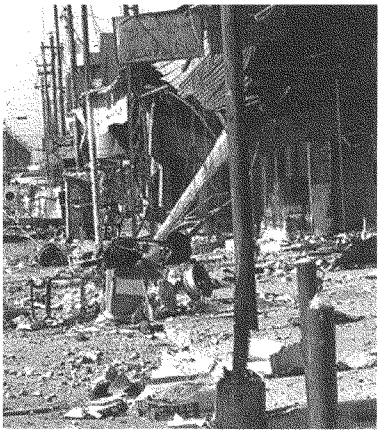

الغرب دمَّر العراق باسم الحرية. اللعنة على مثل هذه الحرية!

ذكرتَ سابقًا «المنتدى الاجتماعي العالمي،» وشعارُه: «عالمٌ آخرُ أمرٌ ممكنٌ.» ما الدلائل التي تراها في ذلك، وما هي الأرضية المشتركة الموجودة لكي يُبْنى عليها؟

عالم آخر أمرٌ ممكن. نعم، إنّه ممكن دومًا. حين تمّ اختراعُ هذا الشعار كان ذلك مفيدًا، لأنّ الناس كانوا يَشْعرون بأنّ معنوياتهم ضعيفة. ولكنّنا تقدّمْنا قليلاً منذ ذلك الزمن. الآن علينا أن نقدّم أشياء ملموسة. كيف يكون ذلك العالمُ الآخرُ ممكنًا، ما هي القوى الاجتماعية التي ستَخْلقه، وما هي الخطوات الانتقالية نحوه؟ هنا تلوذ معظمُ المنظمات غير الحكومية بالصمت. أعتقد أنّ واحدًا من أكثر الشعارات التي لا معنى لها والتي انبثقتْ من حركة العدالة الكونية هو شعار جون هولوواي، وهو أحد منظّري العداء للسياسة anti-politics: «إنّنا نستطيع أن نغيّر العالم من دون أن نَسْتلم السلطة.» يبدو وقعُ الشعار على الأذن جيّدًا، إلاّ أنّه هراء. هذا غير ممكن. حتى في الأوقات الصعبة تحتاج إلى حكومةٍ متعاطفةٍ تستطيع أن تبدأ بالتغييرات.

المثال الكلاسيكي على ذلك هو فنزويلا، الجمهورية البوليڤارية. فرئيسها المنتخَب هوغو تشاڤيز قد بيَّنَ كيف أنّه من الممكن هزيمة الأوليغارشية (حُكْم الأقليّة) ديموقراطيّاً، بالدعم القادم من الأغلبية الكاسحة من الفقراء. ولقد استطاع أن يفعل ذلك من خلال استخدام أموال النفط الفنزويلي، فدَفَعَ قُدُمًا ببرامج الصحّة وبرامج التربية والإصلاح الزراعي وإسكان الفقراء. وهذه أمور كان لها أثر كبير. فقبل وصول تشاڤيز والجمهورية البوليڤارية كنّا أمام فصائل مختلفة من الأوليغارشية تَحْكم فنزويلا، بما لا يَخْتلف عن الولايات المتحدة. لقد كان في فنزويلا [من قبلُ] ديموقراطيةٌ شكلية، لكنّ أيّاً من الأحزاب لم يكن مهيّأً لبناء أيّ تغيير حقيقي. أما تشاڤيز ففعل

ذلك، ولذلك تكرهه وتزدريه الأوليغارشيةُ، التي حاولتْ أن تُسقطَه بمساعدة الولايات المتحدة في ثلاث مناسبات. وقد فشل الطرفان في ذلك لأنّه كان يحوز دعمًا شعبيّاً. وسببُ ذلك الدعم يعود إلى الإصلاحات الاجتماعية التي تَحدّتْ صندوقَ النقد الدولي والبنكَ الدولي بشكلٍ مباشر. ولو فعلتْ ذلك كلٌّ من الأرجنتين والبرازيل ـ أيْ لو قَلَّدَ «لولا» الرئيسَ الڤنزويليّ بدلاً من أن يخرّ على ركبتيه أمام صندوق النقد الدولي ـ لكانت أمامنا إمكانياتٌ حقيقيةٌ للتغيير في أميركا اللاتينية، التي تحتوي بعضًا من أكثر الحركات الاجتماعية في العالم المعاصر راديكاليةً. إذن هناك بالتأكيد إمكانيات معيّنة، لكنّ الأشخاص المهووسين بأسلوب المنظّمات غير الحكومية وبآليةِ عملها لا يستطيعون رؤيةَ ذلك.

تَنْقد أروناتي روي المنظّماتِ غيرَ الحكومية فتقول إنّها تعزّز البنى المهيمنة من السلطة.*

إنّها مصيبة تمامًا. أنا لم أقرأ مقالها بعد ولكنّني قرأتُ تعليقاتٍ عليه، ومنها أستنتجُ أنّها محقّة، ويَنْطبق قولُها على ٩٨٪ من المنظّمات غير الحكومية. ثمة، من دون شك، بعضٌ من تلك المنظمات التي تقوم بعمل جيّد، لكنّ الأغلبية الكاسحة تعزّز [السلطةَ] تمامًا.

٩٨٪ من المنظّمات غيرِ الحكومية تعزّز السلطة، وتَدْفع الاستراتيجيةَ الإمبرياليةَ قُدُمًا!

في خريف العام ٢٠٠٤ كنتُ في مينيسوتّا في كلية ماكالسترْ، أناقش البروفسور نيال فيرغوسون، المنافحَ البريطانيَّ عن الإمبراطورية والحاصلَ على كرسيّ التاريخ في جامعة هارڤرد. قال بشكل واضح جداً: «أيامَ الإمبراطورية البريطانية كان عندنا مبشّرون يذهبون [إلى المستعمرات] ويحاولون تحويلَ الناس إلى المسيحية. وهذا لم يَعُدْ ممكنًا الآن لأنّه ليس جديّاً. ولكنْ، بدلاً من ذلك، عندنا المنظّمات غير الحكومية!» وقال: «هذه المنظمات تقوم بالوظيفة نفسها من أجلنا، وهي مهمة جداً من أجل دفع الاستراتيجية الإمبريالية قُدُمًا.» وعندها قلتُ: «هذا هو الشيء الوحيد الذي أوافقكَ عليه في كلّ ما قلتَه اليوم.» أعتقد أنّ المحزن هو أنّ بعض المنظمات غير الحكومية لا تدرك ذلك. بعض العاملين معها لا يدركون ذلك. ولكنْ هذا هو الدور الذي تلعبه فعلاً.

حدِّثْنا أكثر عن ڤنزويلا. ثمة فيلم وثائقي جميل بعنوان «الثورة لن تُنقل على شاشة التلفزيون» من إنتاج شابّيْن من إيرلندا وجدا نفسيْهما داخل قصر ميرافلورس في كاراكاس أثناء حصول الانقلاب في نيسان ٢٠٠٢. لقد التقيْتَ هوغو تشاڤيز. ما هي انطباعاتُك عنه؟ غالبًا ما تصفه الصحافةُ الأميركية بأنّه نمطٌ كلاسيكي من الطاغية العسكري اللاتيني.

انطباعي عنه أنّه إنسان حَبُّوب جداً، ومنفتحُ العقل، وحريصٌ على التعلم، وقارئٌ نَهِمٌ للكتب، خلافًا لمعظم السياسيين الأميركيين. إنّه جيّد الاطّلاع، مثقف، ومتلهّفٌ في الوقت نفسه إلى النقاش، وإلى المزيد من التعلّم، وهو قابلٌ للنقد. في ڤنزويلا، الإعلامُ الخاصّ بأكمله تقريبًا يَمْلكه غوستافو سيسنيروس، وهو مهاجرٌ كوبيّ من ميامي بنى إمبراطوريةً إعلاميةً ضخمة، ويَمْلك شبكات التلفزيون والجريدتيْن الأساسيتيْن في البلد. ويعمل الإعلامُ على مهاجمة تشاڤيز بلا كللٍ، وأحيانًا بأكثر الأساليب المقرفة. ليس هناك تنظيم للإعلام الخاصّ، كما هو الوضع في الولايات المتحدة وبريطانيا. وأعتقد أنّهم [جماعة تشاڤيز] سيفعلون شيئًا في هذا الصدد لأنّ بعضًا ممّا نشرتْه وسائلُ الإعلام فظيعٌ بكل معنى الكلمة. ولو حَدَث ذلك في الولايات المتحدة لحصلتْ فضيحة، وخاصةً الهجوم العنصري على تشاڤيز، إذ يتمّ تصويرُه في التلفزيونات الخاصة على أنّه قِرْد!

يتحدّر تشاڤيز من عائلةٍ مختلطة؛ ففيه عِرْق هنديٌّ أصلي وعِرْقٌ أسود. كانت أمُّه معلّمة في مدرسة. والتحق بالجيش لأنّ كثيرًا من الأولاد الفقراء الذين هم مثله أو أفقر منه لم تكن لديهم

* ـ نشرت الآداب (٢/١، ٢٠٠٥) ترجمة رئيس التحرير لخطاب روي الذي يشير إليه برسميان، وجاء فيه: «فكثير من حركات المقاومة... تَعْتبر المنظّمات غيرَ الحكومية... مبشّرين معاصرين جاءوا ليَنْزعوا القشرةَ القبيحةَ عن وجه الإمبريالية من أجل تسكينِ الغضب السياسي الشعبي والمحافظة على الوضع القائم.» (المترجم)

احتمالاتٍ أخرى؛ فالجيش وسيلة للحصول على وظيفة. وتشاڤيز إنسان موهوب، تدرّج في صفوف الجيش بسرعة كبيرة، ثم صار يَهْجس بسيمون بوليڤار، المحرِّر العظيم لأميركا اللاتينية، ورأى قوةَ الدفع الراديكالية في كثيرٍ من تصريحات بوليڤار، وتساءل: «لِمَ لا نستطيع أن نَفْعل ذلك عندنا؟»

لو أنّه أتى إلى السلطة عبر انقلاب عسكري لفهمتُ بعضَ الانتقادات الموجَّهة إليه، لا من قِبل اليمين وحدَه بل أيضًا من قِبل الليبراليين والأشخاص الذين يُحْرِجُهم كثيرًا أنّ الأمور الجذرية يمكن أن تَحْصُلَ إلى اليوم. لكنّه لم يأتِ إلى السلطة عبر انقلاب عسكريّ، بل عن طريق الانتخابات. ثم أعيد انتخابُه وفاز خمسَ مرّات في انتخابات واستفتاءات مختلفة الأشكال. إذن، «أوراقُ اعتماده» الديموقراطية خاليةٌ تمامًا من أيّ عيبٍ. وأجده، على المستوى الشخصي، حبّوبًا جدّاً. أعتقد أنّ نقاط الضعف في ڤنزويلا أنّه كان على النظام البوليڤاري أن يُخلق من نقطة الصفر، إذ لم يكن ثمة شيءٌ هناك، وهم الآن يحاولون بناءَ نظامٍ اجتماعي وسياسي واقتصادي ينافس النظامَ الأوليغارشي القديم، نظامٍ قادرٍ على الاستمرار إلى ما بعد رحيل تشاڤيز. إنّ ڤنزويلا هي البلد الوحيد في العالم الذي تذهب إليه فتشعر بالتفاؤل الشديد. وأنا لا أَزْعم أنّه لم تعد هناك مشاكلُ هائلة، ولكنْ هناك على الأقلّ حكومةٌ تحاول حلَّها.

إنّ ڤنزويلا هي البلد الوحيد في العالم الذي يُشْعِرك بالتفاؤل الشديد، وتشاڤيز منفتح ومثقف وحبّوب!

في فيلم «الثورة لن تُنقل على شاشة التلفزيون» ترى التظاهرات الشعبية التي قام بها السُّودُ والسُّمْر تأييدًا لتشاڤيز، وترى أيضًا التظاهرات المعارضةَ المكوّنة من أناسٍ بيضٍ وفاتحي البُشرة. هذه الصورة تتكرّر على امتداد القارة، ولكنْ هل تستطيع أن تتحدّث عنها في ڤنزويلا تحديدًا؟

لاحظتُ في المرة الأولى لزيارتي ڤنزويلا ـ ولقد زرتُها عدةَ مرات ـ أنّ القاسِمَ (الفالِقَ) الطبقي يتكرّر في قاسمٍ عِرْقي ولَوْنيّ. فالأغنياء بيضٌ فاتحو البشرة، وأغلبية سكّان البلاد غامقو البشرة. الأوليغارشيون (القلّة)، البيضُ الفاتحو البشرة، هم اليوم خارج السلطة، يَرْعقون؛ والغامقو البشرة هم في السلطة، لأوّل مرة في تاريخ ڤنزويلا. وهذا، إذن، ليس أمرًا هيِّنًا بالنسبة إلى وعي الكثرة؛ فهم لم يَسْبق أن تمتّعوا بالسلطة من قبل. ولقد شهدتُ تجمُّعاتٍ تحدّث فيها الأميركيون الأصليون (الهنود) في ڤنزويلا عن معاملتهم السابقة، وكيف كان يتمّ تجاهلُهم. كما أنّ انتصارات تشاڤيز ذاتُ وقعٍ كبيرٍ في الجيش، الذي يضمّ بشكلٍ كبير أشخاصًا غامقي البشرة. أعتقد أنّ الولايات المتحدة حاولت استخدامَ بعض الجنرالات لإسقاط تشاڤيز، ولكنّها فشلتْ لأنّ الجنود دعموه.

في أماكن أخرى من أميركا اللاتينية هناك هيجان شديد. ففي بوليڤيا مثلاً خسر إيڤو مورالس الانتخابات الرئاسية بفارق بسيط. وهناك حركة شعبية في كوتشابانبا بسبب حقوق الحصول على الماء.* وأظنّ أنّ شعار الحركة: «الماءُ لنا!». وهناك حركات في الأرجنتين مثل «ڤيا كامپسنيا.» وفي البرازيل حركة «العمّال بلا أرض.» هل ثمة إمكانيات لأن تبدأ التحوّلات الكونية من أميركا اللاتينية؟

لقد بدأتْ فعلاً. بدأتْ في ڤنزويلا. وفي الأرجنتين نفسها لم يوافق الرئيس على مطالب صندوق النقد الدولي بسهولة؛ إنّه يقاوم، ويردّ على الهجوم بمستوى معيّن. الخيبة الكبرى جاءت من «لولا» في البرازيل. فقد كان هذا قائدًا عمّاليّاً انتُخب أساسًا من قِبل الفقراء الذين ظنّوا أنّه يستطيع أن يَقْلب الأمورَ رأسًا على عقب، غير أنّه تحوّل إلى طوني بلير آخر في أميركا اللاتينية. هذه هي المشكلة الكبرى.

---

* ـ راجعْ مقال شفيق عَسَل، «مدينةٌ تقاوم العولمة!،» الآداب ٣/٤، ٢٠٠٣، ص ٩٧ ـ ١٠١. (المترجم)

لقد لاحظتُ منذ مدة أنّ القارة التي تتعرّض فيها السياساتُ الاقتصادية للإمبراطورية للتهديد والتحدّي المتواصل هي أميركا اللاتينية. وأظنّ أنّ الجميع يَنْظر إلى هذه القارة بعيْنين ملؤهما الأمل، عينيْن توّاقتيْن إلى أن يَبزغ شيءٌ ما هناك. وسيكون ذلك عدالةً تاريخيةً وشعرية. فهذه القارة كانت، في نهاية المطاف، «الحديقةَ الخلفيةَ» لإمبراطورية الرئيس جايمس مونرو. إنّها القارة التي سبق أن قالوا «إنّها لنا، ونستطيع أن نفعل فيها ما نريد،» وقالوا للقوى الإمبريالية الأخرى، للبريطانيين والفرنسيين، «لا تحاولوا أن تدخلوا إلى هناك؛ إنّها لنا.» وكما أشار الجنرال سمَدْلي بَتْلر، فإنّ هذه القارة قد تعرّضتْ للاغتصاب عدةَ مرات من قبل رجال البحرية الأميركية والشركات الأميركية. ولذا سيكون متوقَّعًا أن تبدأ مقاومةُ تلك الإجراءات الاقتصادية [الإمبريالية] هناك.

في سيرتك الذاتية في الستينيات، وعنوانُها سنواتُ حرب الشوارع، **وصدرتْ من جديد في نسخة موسّعة من دار نشر ڤرسو، تتحدّث عن صداقتك لجون لينون [مغنّي البيتلز]. وتُدرج في الكتاب مقابلةً معه ومع يوكو [زوجتِه]. لفتني أنْ أقرأ أنّك نصحتَه بعدم الانتقال إلى الوِلايات المتحدة.**

■

الجميع يَنْظر إلى أميركا اللاتينية بعينين ملؤهما الأمل لأنّ مقاومة الإمبريالية الاقتصادية قد تبدأ هناك

■

حين قال لي: «إنّني أفكّر في مغادرة بريطانيا والذهاب إلى نيويورك» كنّا نتحدّث على التلفون، فأجبتُه: «لا تفعلْ ذلك، يا جون.» قال: «لماذا؟ أنت تعرف، ضقنا ذرْعًا! يوكو [زوجته اليابانية] تتعرّض للهجوم من قِبل العنصريين والإعلام البريطاني، وهي تجد ذلك أمرًا ضاغِطًا مقيِّدًا.» قلت: «إنّني أتفهّم كلَّ ذلك.» فأجاب: «إذن، لماذا تعتقد أن عليّ ألاّ أنتقلَ إلى أميركا؟». قلتُ: «لا أعرف. أنا قلقٌ فقط. هناك مجانين كثر. أنا قلق.» كان ذلك ردّاً غرائزيّاً فحسب. قال جون: «حسنًا، نحن لن ننتقل إلى أميركا المجنونة؛ نحن سننتقل إلى مانهاتن. وهذه ليست أميركا حقّاً!» ثم دَرْدَشْنا عدةَ مرات حين جاء إلى الولايات المتحدة، وبدا أنّه سعيد جدّاً هناك. لقد كان يحب نيويورك حقّاً.

لكنّه منذ ٢٥ عامًا قُتِل. وكان ذلك صدمةً عميقةً لي، وكان أحدَ أسباب قراري بالسماح بإعادة طبع **سنوات حرب الشوارع**. وقدّمتُ له بمقدمة طويلة، طويلة، وأضفتُ إليه الحوارَ مع لينون لمجرّد تذكير الناس بتلك الأوقات.

كنتَ تعرف ميكْ جاغِر [من فرقة رولنغ ستونز]. وأغنية الرولنغ ستونز التي «ضَرَبتْ» عنوانُها: «رجل حرب الشوارع،» وهي على صلةٍ ما بك أنت.

كانت تلك أوقاتًا غريبة. كان ميك جاغر يأتي إلى كلّ التظاهرات المعادية لحرب ڤيتنام، وكَتَبَ تلك الأغنية بخطّ يده وبعثها إليّ قائلاً: «لقد كتبتُها لك أنتَ. ولقد مَنَعَتْها هيئةُ الإذاعة البريطانية، فعلينا إذن أن ننشرها في **القزم الأسود**، وهي مجلة جذرية كنتُ أرأس تحريرَها آنذاك. ولهذا صوّرناها ونشرناها في تلك المجلة. ثم جَعْلَكْتُ النسخةَ الأصلية ورميتُها في سلّة المهملات. ولو لم أفعلْ ذلك لكنّا اليوم قادرين على تمويل جريدةٍ جذريةٍ جديدة!

تصدّيْتَ لموضوع الإسلام عبر عدد من الروايات: ظلال شجرة الرمّان، كتاب صلاح الدين، امرأة الحجر، **ومؤخّرًا أصدرتَ:** سلطانٌ في پالرمو. **وفي محاضرةٍ ألقيتَها في جامعة نيو مكسيكو قلتَ إنّ ما دَفَعَكَ إلى كتابة الروايات هو شيء سمعتَه على تلفزيون BBC.**

كان ذلك أثناء حرب الخليج الأولى عامَ ١٩٩١. فقد ظهر على تلك الشاشة عالِمٌ يبرِّر الحرب. وفي سياق تبريري انزلقتْ جملةٌ من فمه؛ فقد قال: «إنّ العرب شعبٌ بلا ثقافة سياسية.» أغضبني ذلك كثيرًا جدّاً. وبعدها صرتُ شديدَ الاهتمام بالتاريخ الإسلامي، وطرحتُ على نفسي السؤالَ التالي: «لِمَ لَمْ يحدثْ إصلاحٌ داخل الإسلام؟»

لذلك ذهبتُ إلى إسبانيا لكي أنظرَ إلى جذورِ ما اعتبرتُه أفضلَ حقبة في التاريخ الإسلامي، الأندلس. فرأيتُ الآثار، وجُلْت هناك شهورًا، ثم خطرتْ في رأسي روايةٌ، وتحوّلتْ إلى رواية: **ظلال شجرة الرمّان**.

قرأها إدوارد سعيد، وحين التقيْنا قالَ لي بأسلوبه النموذجي: «عظيمة، لكنْ عليك أن تنهي المهمة الآن.» قلتُ: «ماذا تعني؟» قال: «قل القصةَ اللعينةَ كلَّها. ليس الأمرُ محصورًا بإسبانيا. تحدّثْ عن الصليبيين، عن الإمبراطورية العثمانية.» قلتُ: «إدوارد، هذا مشروع ضخم.» أجاب: «قُمْ به. قمْ به.» ثم فكّرت في ما قاله، وكان ذلك في الواقع فكرة جيدة جداً. لذا فأنا أَلومُ إدوارد سعيد على هذا.

ولكنّني سعيد حقّاً أنّني في الصيف الماضي [صيف ٢٠٠٤] ذهبتُ للعزلة في باكستان، في منزل أمي، حيث قطعتُ صلاتي عن بقية العالم وعن الرسائل الإلكترونية وعن كلِّ ما يُزْعج. أمي حارسة صارمة جداً. وأفلحتُ في إنهاء روايتي **سلطان في پالرمو**. لقد بدأتُها في پالرمو وراغوسا في صقلية، وقليلٌ منها كُتِب في خليج بايرون في أستراليا، وأنهيتُها في لاهور. لم أصدِّق أنّني أنهيتُها لأنّي إزاء ضغوط كثيرة على وقتي الآن. وهكذا تبقى أمامي روايةٌ أخرى أضيفها إلى هذه الخماسية، وبعدها، كما يقولون: آمين!

فهمتُ أنّك ستُصْدر كتابًا [صدر منذ شهور وتَنْشره دار الآداب قريبًا ـ المترجم] مع هذا المُذيع [دايڤيد برسْمْيان]، وعنوانه: الحديث عن الإمبراطورية والمقاومة. **عمّ يتحدّث؟ ومن هو هذا الشخص؟**

إنّه شخصٌ غريب التقيتُه قبل أعوام، واسمُه دايڤيد برسميان! إنّه أرمني، لكنّه يتحدّث بلغتي. لقد سافر وقضى وقتًا ما في شبه القارة الهندية. وحين التقيتُه أولَ مرة ظننتُ أنّه هندي. إنّه يعيش في بولدر (كولورادو)، وينتقل من مكانٍ إلى آخر ليُجري مقابلات مع الراديكاليين في أنحاء العالم، وهو ما فتئ يجري مقابلات معي منذ عدة سنوات. وقد اقترح أن نُصدر كتابًا من المقابلات معًا...

كنتُ قلقًا نوعًا ما من استخدام كلمة «الإمبراطورية» في العنوان، لأنّ هناك كتبًا كثيرة رثّةً تَحْمل في عنوانها كلمةَ «الإمبراطورية.» لكنّ تسميتَه **الحديث عن الإمبراطورية والمقاومة** يجعله كتابًا فريدًا. ذلك أنّ كثيرًا من الناس يتحدّثون عن الإمبراطورية، غير أنّ **المقاومة** هذه الأيام لم تعد كلمةً شعبيةً... أو على الموضة!

الولايات المتحدة

قلتُ لجون لينون: «لا تذهب إلى أميركا،» فقال إنّه ضاق ذرعًا بالعنصريين البريطانيين ضدّه وضد زوجته [اليابانية]، لكنّه قُتل في أميركا منذ ٢٥ عامًا

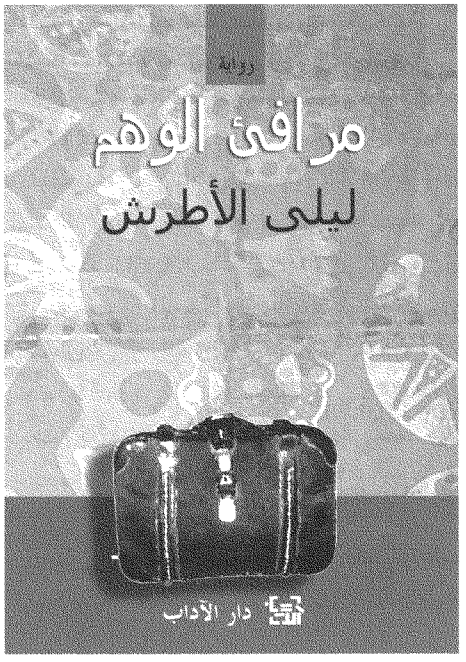

عالم من الرومانسية والاشتهاء والتعاطف والحب والامتلاك والصدام والإدمان، يفجرّ كثيراً من المسكوت عنه من خلال العلاقات العاطفية المدمّرة لفنان بوهيمي، وزوجة عاشقة تتمرّد، وصحفي يتاجر بفكره، وإعلاميّة تسدّ فراغها العاطفي بالنجاح والشهرة، ومخرج يدمن النساء...

رحلة تتقاطع فيها المصائرُ والمساراتُ لفريق إعلامي عربي، من فلسطين والعراق والخليج، أثناءَ مهمةٍ لهم في لندن، ليواجه كلٌّ منهم الآخرَ في حياة يعيشونها وأخرى مشتهاة بَسَطَتْ ظلالها على الواقع العربي.